الوصية

تعالت أصوات الزغاريد في بيت أم يوسف، فاليوم ليس كسائر الأيام، لقد تخرج ابنها وأصبح جراحاً كما كان يأمل والده العم مأمون...

بعد انتهاء مراسم حفلة التخرج عاد يوسف إلى منزله مع والدته التي انتظرت هذا اليوم بفارغ الصبر، طلبت من ابنها أن ينتظرها في الصالون لتحادثه في أمر يخصه، أقبلت عليه الخالة خديجة وفي يدها ظرف بني مكسو بغبار كانت قد مسحته بأصابع يدها المجعدة...

-حبيبي لقد انتظرت هذا اليوم بفارغ الصبر، يوم تخرجك وتتويجك، لأقدم لك أمانة قد أثقلت كاهلي منذ سنين، هذا الظرف به رسالة من والدك قد تركها لك قبل موته.

تغيرت ملامح يوسف وخاطب أمه بصوتٍ يملؤه العتاب والتساؤل:

-انتحار؟! وليس موتاً؟! أماه!! لقد اختار الهروب، ألم يعدني بأنه سيكون لي سنداً ورفيقاً، ألم يعد أنه من سيقوم بإعداد مراسم تخرجي.

-يوسف، ستطفئ هذه الرسالة لهيب الحيرة داخل قلبك. اقرأها

أخذ يوسف الظرف وذهب إلى غرفته وأشعل سيجارته البيضاء ذات القوام الممشوق، وأخذ يتصفح سطور الرسالة

(ابني العزيز يوسف أنت الآن أكيد تخرجت وأصبحت طبيباً كما كنت تتمنى، سامحني بني لقد كذبت عليك لم أكن أشتغل موظفاً في شركة كما كنت تظن، كنت فجر كل يوم أرتدي ثوبي المرقع وأجوب الشوارع والأزقة لأجمع القوارير البلاستيكية، لأبيعها في آخر النهار مقابل مبلغ زهيد. وأثناء الليل بعد نومك كنت أخرج من المنزل دون أن تشعر لألتحق بعملي كحارس ليلي لأحد المباني.

انهمرت الدموع من عينيّ يوسف ونزلت فوق سيجارته وأطفأت لهيبها، مسح دموعه ليكمل قراءة باقي الوصية

(عندما كنت في سن العاشرة أصبت بقصور قلبي حاد، كان مرضك نادراً، لا يصيب إلا حالة واحدة من بين ألف طفل، وبدأت تذبل أمامي رويداً رويداً، الحل الوحيد كان بزراعة قلب جديد ولكن زراعة الأعضاء في بلدنا كانت مخالفة للعادات والعرف ولا يقبل أهالي الميت أن يتم العبث بجسده، طرقت كل الأبواب وما من مجيب، لم تكن تعلم بمرضك فقد كنت صغيراً، كنت أتقطع عندما تسألني لماذا أنت طريح الفراش دائماً ولا يسعك اللعب مع خلانك في الأزقة.

بعد سنتين تعكرت حالتك وأصبحت مضغة الدماء داخل ضلوعك تشتغل بنسبة عشرة بالمائة، مما زاد وضعك سوءاً أخبرني طبيبك المباشر أن أتوقع الأسوأ في كل وقت، سامحني يا بني فأنت قطعة من روحي، ولم

أقدر أن أراك تموت أمام ناظري، كانت أمانيك كبيرة رغم صغر سنك حلمت أن تصير دكتوراً لم أستطع أن أترك مرادك يتبخر في السماء، ... أنت الآن أكيد ناقم علي وتظن أنني قطعت شراييني لأنانية مني وهروب من عثرات الحياة، قلبي الآن ينبض داخل جسدك، ودمائي تجري في شراييننك، أما باقي أعضائي فقد قمت ببيعها لتعيش حياة كريمة بعد موتى، ابني العزيز، اصفح عني، وأوصيك بهذه الكلمات:

دينك أمانة

فناجي المولى واسجد واقترب

وطنك أمانة

فجاهد بعملك لتحقق الهدف النبيل

جسدك ونفسك أمانة

فحافظ على جسدك بقلة الطعام

وعلى نفسك بقلة الآثام

بر أمك وديعة

بها تخطو خطى إلى الجنان

زوجتك أمانة
فكن لها عاشقاً متيماً
فإن الحب بلا صدق مغلف بثقة
يصبح خيانة مداهنة
عش أميناً مخلصاً
فمن ضيع الأمانة ورضي بالخيانة فقد تبرأ من الديانة.
وطنك ليس يوتوبيا ابني و لكن بجهدك وعملك سوف تجعل منه المدينة الفاضلة، حافظ على قلبي بني وتفكر دائماً أني معك بين ضلوعك أينما تكون.....

****